

الإسلام والعقل

يجب على طالب العلم أن يضع
موضع الشك كل شيء يحتجزه عقله
ويقتنع به ، ليصل للفكرة الصحيحة .
فرنسيس بيكون

الإسلام والعقل

لعل من أشد الادعاءات التي واجهت الإسلام ، وحاولت تشويه صورته ، هو ادعاء أن الدين الإسلامي يدعو إلى تجميد العقل وعدم إرهاقه بالتفكير ، والرضا بالواقع الذي يعيشه المسلمون في كل العصور ، وكأن الإنسان المسلم قد غدا عبداً لقوة خفية لن يستطيع مقاومتها ، وكأنه قد وضع ضمن مجال معين من الحياة في ظروف اجتماعية واقتصادية معينة ، لن يستطيع تجاوز هذا المجال مهما حاول ، ومهما بذل من جهد .

هذه خلاصة الأفكار التي حاربها مدعو المعرفة بالدين ، هذه الأفكار التي حاولت وما زالت تحاول هدم الأسس التي قامت عليها الحضارة الإسلامية ، وكانت السبب في تشييد صروح المجتمع المسلم .

وهنا لن نقف طبعاً إلى جانب أعداء الإسلام ، أعداء الحق ، وبالمقابل لن نتطرف برأينا إلى حد الغلو فيه ، فنذعي أن الدين إنما هو دعوة صارخة لاستخدام العقل وإخضاع كل الأمور والأحكام التي تمر في الحياة الدنيا له ، فلن نكون مع هؤلاء ولا مع أولئك .

ولكن ترى هل غرب عن بال أولئك أن الإسلام إنما دعا في يوم من الأيام جميع البشر إلى إعتاق عقولهم من عبودية الخرافات

والخزعات ، وإعمالها في أمور الكون والخلق ، والنظر في أرجاء هذه الأرض ، وفي السماء ، وفي كل شيء .. لكي نعتبر فقط من خلال الحوادث الماضية ، ومن خلال الشواهد التي وضعها الله في الكون .. وفي الإنسان نفسه .. فدعا القرآن الكريم كثيراً العباد إلى التفكير ، ومن المعروف أن التفكير لا يأتي إلا من أصحاب العقول .. ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ [الحج : ٤٦] .

فالسير في الأرض إنما هو الدعوة الصارخة إلى التفكير ، للوصول إلى الحقيقة الصادقة ، الحقيقة الناصعة ، الظاهرة ظهور الشمس عن حقيقة الخلق والوجود .. والنظر في ملكوت السموات والأرض يحمل الدعوة نفسها ، والمعنى الأعم والأشمل .. ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٨٥] .

وشمولية الدعوة للتفكير هنا لا شك واضحة في قوله تعالى : من شيء .. فكل ما هو موجود واجب التفكير والنظر فيه ؛ للوصول إلى الحق .

والدعوة إلى البحث والتفكير في بداية الخلق ما زالت قائمة وموجهة إلى جميع الراغبين في البحث ، إلى جميع العادلين في بحثهم ، الذين ييغون الوصول إلى الهدف الأسمى .

﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ [العنكبوت : ٢٠] .

والسير في الأرض يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة ؛

التي لم تألفها العين ، ولم يملها القلب . وهي لفظة عميقة إلى حقيقة دقيقة . وإن الإنسان ليعيش في المكان الذي ألفه ، فلا يكاد ينتبه إلى شيء من مشاهدته أو عجائبه ؛ حتى إذا سافر وتنقل ، وساح ، استيقظ حسه وقلبه إلى كل مشهد ، وإلى كل مظهر في الأرض الجديدة ؛ مما كان يمر على مثله ، أو أروع منه في موطنه دون التفات ، ولا انتباه . وربما عاد إلى موطنه بحسٍّ جديد ، وروح حديد ؛ لبحث ، ويتأمل ، ويعجب بما لم يكن يهتم به قبل سفره وغيبته ، وعادت مشاهد موطنه وعجائبها تنطق له بعدما كان غافلاً عن حديثها ، أو كانت لا تفصح له بشيء ، ولا تناجيه ! ويكون السير في الأرض لتنبية الحواس والمشاعر برؤية المشاهد الجديدة ، ودعوتها إلى التأمل والتدبر في آثار قدرة الله تعالى .

ويؤكد القرآن الكريم أن الباحث في أجواء الكون ومجاهله ، وفي عالم الإنسان وغوامضه ، هذا الباحث عن الحقيقة لا بد أن يجدها طالما أعمل عقله في البحث بصدق عبر النظر في آيات الآفاق والأنفس .. ﴿ سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] .

فهذا الحق لا بد أن يظهر جلياً واضحاً .. ولكن كيف ؟ بالتأكيد ليس بتجميد العقل ، ولكن بالتفكير الصحيح ، وهذا التفكير لا يستطيعه إلا العقلاء .. !! فأين أولئك الذين يدعون ويفترون على الله وعلى الإسلام .. ﴿ أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِئَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ ﴾ [فصلت : ٥٤] ^(١) .

(١) « مرية » : شك عظيم .

ولقد أصيب هؤلاء الناس بابتلاء من ربهم ، فأنعم عليهم ولكن جحدوا النعم ، وظنوا أنهم قد وصلوا إلى درجات العُلا والسمو ، ولم يعودوا بحاجة لأحد ، حتى لرب العالمين . فغلقوا عقولهم ، وحاربوا المُنعم .. ﴿ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ ﴾ [فصلت : ٥١] (١) .

ولكن حتى هؤلاء إذا عركتهم الحياة ، واعترضهم موقف قاس ، وامتحان صعب ، فحرموا من إحدى النعم لتجذبنهم يتجهون إلى خالقهم ويتضرعون إليه كي ينقذهم ويخلصهم من ورطتهم .. ونسوا كيف تناسوا ربهم يوم كانوا غارقين في النعيم ؟! ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾ [فصلت : ٥١] (٢) فيفك الله عنه محنته ، فيعود لما كان فيه من البأس والشدة والغرور ، ويعود إلى إنكار المنقذ والمنجي .. ﴿ وَلَئِنْ أَدْنَاهُ رَحْمَةً وَمَتَأَمَّنْ بِعِدِّ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا إِلَى وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً ﴾ [فصلت : ٥٠] (٣) .

وقد يتساءل بعضهم : ولكن لماذا لا يخلص الله البشر من هؤلاء المراوغين ، طالما أنهم يكذبون على خالقهم ، وهو أعلم بهم ؟!

إن هذا لا يتم لحكمة إلهية ، لعلها العبرة والتفكر ، فهو يمهل

(١) « نأى بجانبه » : تباعد عن الشكر بكليته تكبراً .

(٢) « دعاء عريض » : كثير مستمر .

(٣) « هذالي » : هذا حقي أستحقه بعملتي .

ولا يهمل ، ومن رحمته أن يرسل لهم وللجميع الرسل ، وينظرهم إلى أجل قريب لأن الله ليس بظلام للعبيد . . ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْفُرَىٰ يَظْلَمِ وَأَهْلُهَا غَفْلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣١] فهذا يتناقض مع عدل الله ورحمته لعباده .

ويدعونا الإسلام مجدداً للتفكير ، ولكن هذه المرة في أنفسنا ، في هذه النفس البشرية التي ما زالت لغزاً محيراً للعلماء ، وما زالت الكتب والمجلدات تُسطر في علم النفس وعلوم التشريح ، ولكنها قاصرة ، لم تَفِ النفس حقها .

والتفكر في النفس بشكل صحيح ، ومن كافة الجوانب المادية والمعنوية لهو أبلغ لنا ، وأكثر إثباتاً للإبداع الإلهي ، وأقرب إلى تصديق الدعوة الإلهية للنظر والتفكير . ﴿ وَفَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] .

﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [الروم : ٨] .

ويضرب لنا القرآن أمثلة كثيرة ، ويقص علينا من القصص الشيء الكثير ، ويحدثنا عن السموات والأرض ، والليل والنهار ، والأزواج ، والبرق والمطرو ، و . . .

ثم يقر قاعدة . . ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٤٣] العالمون : هم من سخروا العلم لخدمة الإنسانية . . مبتغين وجه الله . . هم من تفكروا حقاً .

فالعلماء أمناء على الشريعة ، وحاملو كلمة التوحيد إلى الناس كلهم ، يدعون إلى الله على بصيرة ، وهدى ، وكتاب منير .
وقد أولاهم الإسلام مكانة لا تُضاهى ؛ إذ حملهم هذه المسؤولية الجسيمة ، وألقى على عواتقهم نشر كلمة الحق ، وبثها في النفوس . فمن ذأب على الحق كان الله معه ، واحترمه الناس ، وبجلّوه ، وفاز بالجنة يوم الحساب .

لذلك قال بعض السلف : إذا مرّ في القرآن مثل ولم نفهمه بكينا على أنفسنا ؛ لأن الله عز وجل يربط فهم هذه الأمثال بالعلم والعلماء .. فهم بعلمهم يتعدون عن اللعب والعبث الذي يصر عليه بعض مدّعي العلم والمعرفة .. ويتعدون عن اعتقاد العبث واللعب في الوجود .. ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ ﴾ [الدخان : ٣٨] .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ١١٥] .

وإذا .. وبعد هذا أين المدّعون .. أين أولئك مدّعو الحكمة والمعرفة .. أولم يدرسوا هذه الآيات ، أو لم يتفكروا فيها .. أم مروا بها مرور الكرام .. بل اللثام .. فليس ذنبنا أن اتخذوا موقفاً خاطئاً ، وإنما مرده إغماض أعينهم عن النور الحق .. والخطأ فيهم واضح بين .. ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

وشتان بين من وصل إلى النور الصحيح ، وإلى اليقين ، وبين من ظل يتخبط في مستنقع غروره وجهله .. ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۖ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴾ [فاطر : ١٩ ، ٢٠] .

وتجلى قمة العقلانية والحكمة في هذا الدين في قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ [الكهف : ٢٩] ^(١) .

فالحق واضح بيّن ، والتفكير والعقل موجود ، والقرار يعود للإنسان وحده ، لا يكرهه شيء على الاعتقاد في غير ما يؤمن به . فإنه لا إكراه في الدين .. لماذا ؟! لأنه قد تبين الرشد من الغي .. واتضحت الطرق ، والموقف الآن متروك لك أيها الإنسان .. فبيدك أن تصل وتصيب الهدف .. وبيدك أن تخطئ وتضل ، وعندها لن يرحمك أحد .

فالإسلام إذاً دين دنيا وآخرة ، رغم أنف أعداء الإسلام ، الذين خلطوا الأبيض بالأسود ، وحاولوا جعل الإسلام ترك الدنيا وعدم السعي فيها ، والانقطاع للعبادة ، وخلطوا بين الزهد والفاقة ، وشتان بينهما .

(١) « سرادقها » : فسطاطها ، أو لهبها ودخانها . « كالمهل » : كزدي الزيت ، أو كالمذاب من المعادن . « وساءت مرتفقاً » : متكأ ، أو مقرأ (النار) .

فالزهد هو أن يترك الإنسان عرض الدنيا وهو قادر عليه ، وأن تكون الدنيا بين يديه فلا ينشغل بلذائذها زهداً فيها . والزهد من عمل القلب .

أما الفاقة فهي الفقر والحاجة ، وبُعد الدنيا عن الإنسان ، فلا سبيل له إلى الزهد اختياراً .

وحاول أعداء الإسلام ، أعداء الحق ، أن يظهروا أن القرآن وأحاديث الرسول تهدف إلى ترك الدنيا والإقبال على الآخرة ، وهدفهم إشاعة الضعف بين المسلمين ، ومهاجمة الإسلام بأنه دين يدعو للتخلف عن الحياة مما لا يتمشى مع طبيعة الأحياء .

وما زالوا في محاولاتهم هذه ، وقد نسوا أنه لو تدبرنا القرآن بآياته وكلماته لوجدنا أن لفظ - الدنيا - قد تكرر (١١٥) مرة في القرآن ، وهو نفس العدد الذي تكرر به لفظ الآخرة . . ورب قائل أن هذا من قبيل المصادفة ! ولكن هذا لن يؤثر على نور الحق . . على الإسلام .

فالإسلام دعا إلى الدنيا والآخرة ، والجسد والروح ، في لفظة بارعة إلى تربية الشخصية المتوازنة ، التي لا تختل ولا تشطط في سيرها ، بل تلتزم المنهج الرباني المعتدل دون إفراط أو تفريط . وطالب الإنسان بالسعي والعمل في الحياة ، كما طالبه بالزهد فيها منعاً من أن يعتدي على غيره . . فالقرآن ينص على : ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا

ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا
أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾
[القصص : ٧٧] .

وجاء في الحديث : «ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ، ولا
الآخرة للدنيا ؟ ولكن خيركم من أخذ من هذه وهذه»^(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي
الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] فقدّم حسنة الدنيا
على حسنة الآخرة .

وعندما نوفق بين الدنيا والآخرة ، ترى ماذا سيكون الجزاء . . ؟ !
﴿ فَقَالْنَهُمْ اللَّهُ ثَوَابِ الدُّنْيَا وَحُسْنِ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾
[آل عمران : ١٤٨] .

وهكذا آيات كثيرة وأحاديث عديدة تحث المسلمين على أن
يعمروا جنة الأرض في الدنيا بعملهم وجنة الآخرة بعبادتهم .
وهكذا كان فهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال :
اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت
غداً .

ولذلك فإنه ليس في الإسلام دعوة إلى التخلف عن الحياة ،
وليس من الإسلام أن يترك الإنسان الدنيا فلا يجاهد فيها ، أو أن

(١) انظره في الحاوي (٢/ ٨٩ ، ١١٠) وكشف الخفاء (٢/ ٢٣٨) .

يتوكل في طلب الرزق أو يتقاعس عن السعي ؛ اعتماداً على ما يصيبه من رزق أو خير يجريه عليه الله عن طريق غيره .

وعمر الفاروق رضي الله عنه أكد هذه الحقيقة عندما دخل المسجد فوجد رجلاً يرفع يديه للسماء ويدعو طالباً للرزق . . فعلاه بالدرة وقال له : «أماك الله لقد أمتَّ روح الإسلام ، أما علمت أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة» ؟!

فهذا هو الفهم الحق لدعوة الإسلام .

ولا شك أن الرسول ﷺ كان يقصد أن يدلنا على هذا عندما أمسك يد أحد أصحابه وكانت مشققة فقال :

- « إن هذه يد يحبها الله » (١) .

فجعل العمل موجباً لرضا الله ولنيل محبته . . وفي النهاية نيل الجنة برحمته . . فإذا الكسل والتوكل و ، و . . . مما حاول خصوم الإسلام إلصاقه بالإسلام إنما هو رد عليهم . . وهذا كتابنا . . وهذه سنة نبينا واضحة بينة لا لبس فيها ولا غموض . . فهذا ما أراد أعداء الإسلام أن ينشروه لعلهم يجدون عند المسلمين أو بعضهم قبولاً ، فيتخلفوا عن العالم والحياة . . وتنقلب قوتهم إلى ضعف ، وعلمهم إلى دجل ، ووحدتهم إلى فرقة .

(١) انظره في تاريخ بغداد (٣٤٣/٧) واللائن المصنوعة ٨٥/٢ والموضوعات لابن الجوزي (٢٥١/٢) .

وإنما الإسلام هو دين الحياة والعمل ، دين عمل وقوة وسعي وكد وجد ، وليس فيه مكانٌ للكسل والخمول^(١) ، حتى في الصيام كان الصحابة والمسلمين يحاربون ويفتحون البلاد ويتصرفون . . . وليس كما يدعو بعضهم اليوم للإفطار بحجة الدراسة أو التعب أو . . . فهذه كلها أوهام ليست من الإسلام في شيء . فالدين قد شرع الإفطار مع العذر . . . وليس هذا موضوع بحثنا . . . والإسلام لم يترك جانباً من جوانب الدنيا إلا أوصى به وحث على العمل فيه . . . فبحث في سبل الحياة كلها ، وحث على المضي في طريق النمو عن طريق المعرفة والتعقل لأموال الحياة .

فلو أردنا أن نقول قول الحق ، بعد كل هذا ، لتوجب القول أن الإسلام ما كان إلا هادياً للعقل ، ومنقذاً له من الخرافات والأوهام . . . وكانت نقلة نوعية من عبادة الأحجار والأوثان إلى

(١) عقد الدكتور الشيخ يوسف القرضاوي فصلاً ممتعاً في كتابه (الإيمان والحياة) ، وجعل عنوانه : « الإيمان والإنتاج » . ويكفي أن نقرأ بعض العناوين التي وردت في هذا الفصل ، لنندرك أهمية العمل في الإسلام ، وأنه دين الحياة والسعي . ومن تلك العناوين :

- دافع المؤمن إلى العمل دافع ذاتي .
- الفوز في الآخرة بالعمل لا بالأمان .
- العبادات والإنتاج .
- المؤمن يعمر أرض الله بالعمل .
- الإيمان بالآخرة لا يعطل الدنيا .
- التوكل ليس معناه التواكل .

عبادة الله الواحد القهار ، ومن عبادة العباد ، إلى عبادة رب العباد .
 فتنبهوا يا إخواني إلى تلك المؤامرات التي تحاك من وراء
 الكواليس . . وافتحوا عيونكم وعقولكم بالعلم والمعرفة . . وأثبتوا
 للعالم أن ديننا هو الحق . . وأنه . . ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ
 يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

